رفيق العظم

نقلاً عن مجلة المنار لصاحبها السيد رشيد رضا

في يوم عرفة (٩ ذي الحجة سنة ١٣٤٣ الموافق ٢٣ حزيران (يونيه) سنة ١٩٢٥م) فجعت البلاد المصرية والسورية بل الأمة العربية برجل كان من أعلى رجالها قدراً وأنبههم فيها ذكراً وأعظمهم لديها ذخراً رجل الحسب الشامخ والأدب العالي والفكر المنير والوطنية الصادقة العالم المؤرخ الكاتب الاجتماعي العامل السياسي صديقي الوفي (رفيق بك العظم) ابن محمود بك خليل العظم من اسرة آل العظم السورية العريقة في المجد ففقدت الامة بفقده زعيماً كبيراً وناباً حكيماً وكاتباً قديراً في زمن هي احوج فيه الى الرجال المحنكين والزعماء المخلصين منها الى العافية للابدان والطمأنينة للحيران فرحمهُ الله تعالى

رفيق العظم

﴿نشأتهُ الاولى﴾ ولد الفقيد في دمشق سنة ١٣٨٢ هـ ونشأ كما كان ينشأ امثاله من ابناء الوجهاء المترفين في ذلك العهد فلم يعن والدهُ بتعليمهِ في مدارس العلم العربية لانها خاصةً برجال الدين ولا في مدارس الحكومة العثمانية الاعدادية والعالية لعدم شعورهِ بالحاجة

إلى تحريجه فيها او عدم رغبته بجعله من عمالها وموظفيها الذين لا تكنهم دار ولا يقر لهم بين اهلهم قرار او لحض الاقدار على انهُ هو لم يتعلم تعلماً منظماً وانما اخذ بعض المبادىء عن بعض شيوخ عصره وكان يعاشر العلماء والادباء والمتصوفة ويطالع الكتب ودواوين الشعر لاجل التسلية فكان بذلك شاعراً ومؤلفاً في الادب والتصوف وجاء فقيدنا وارثاً لهُ في ذكائهِ ونشأتهِ ولكنهُ فاقهُ في الجد والعلم النافع والعمل ، اخذ التعليم الابتدائي في كتاب اهلي ، ثم اخذ شيئاً من مبادىء اللغة العربية عن الاستاذ الفاضل الشيخ توفيق الندي الايوبي الشهير وكان كل ما حصله بعد ذلك بمطالعاتهِ الشخصية فهل كان يدور في خلد احد ان مؤلف كتاب اشهر مشاهير الاسلام وغيره من الكتب والرسائل والمقالات الكثيرة في كبرى الجرائد والمجلات المصرية لم يقرأ كتاباً حافلاً من كتب النحو والصرف ولا من كتب المعاني والبيان ولم يتلق علماً ولا فناً جديداً ولا حديثاً عن استاذ ؟ فما هذا الذكاء النادر الذي وضعهُ في مصاف العلماء المصنفين والكتاب المجيدين؟ وما تلك الهمة العالية التي رفعتهُ الى مقام الزعماء السياسيين ورجال الانقلاب المدبرين ؟

كان رفيق ذكي الفؤاد ميالاً بفطرته الى العلم والجد ومعالي الامور عزوفاً عن سفاسفها وصغائرها ، لبث بهِ هذه الفكرة الزكية عن صرف اوقات صباهُ في اللهو واللعب مع امثالهِ من ابناء الموسرين وجذبتهُ الى معاشرة اهل العلم والادب والافكار في الامور العامة كالاستاذ المرحوم الشيخ طاهر الجزائري والاستاذ الشيخ سليم البخاري والاستاذ الشيخ توفيق الايوبي من كهول مشيخة الشام والاستاذ الشيخ محمد علي مسلم ومحمد افندي كردعلي من الاتراب وحُبب اليهِ البحث ومطالعة كتب الادب والتاريخ وكانت نزعتهُ العلمية وكذا الاجتماعية اسلامية حتى ان علماء الاقطار البعيدة الذين وصلت اليهم كتبهُ ورسائله بعد ذلك كانوا يظنون انهُ من علماء الدين

اشتغالهُ بالسياسة ومهجرتهُ الى مصر ثم انهُ كان يعاشر احرار رجال الحكومة العثمانية من الترك وغيرهم ايضاً وتعلم اللغة التركية باجتهاد وحتى صار يقرأ كتبها وجرائدها . واذ كان ميالاً بطبعهِ الى السياسة والامور العامة استمالهُ بعضهم الى الاشتغال معهم في جمعياتهم السرية فدخل اولاً في جمعية الدستور التي اسسها في الشام اسعد بك مدير البوليس فيها ثم في جمعية الاتحاد والترقي . ولما اشتد السلطان عبد الحميد في مطاردة السياسيين العثمانيين طلاب الدستور وطفق يتكل بمن يتعذر استمالتهُ منهم بالوظائف او الرتب

والياشين ازمع الفقيد الهجرة الى مصر ويقول شقيقهُ الكبير ان ذلك كان سنة ١٨٩٤ :

وبعد استقراره في مصر واتخاذها دار هجرة ومقامة طفق ينشر المقالات السياسية والاجتماعية في اشهر جرائدها اليومية : الاهرام فالمقطم فالمؤيد فاللواء وفي اشهر مجلاتها كالمقتطف والهلال والمنار والموسوعات وكان يختلف الى مجالس الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ولاسيما بعد تلاقينا وتوادنا وكان لهُ بالشيخ علي يوسف صاحب المؤيد صلة ودّ وثيقة ثم كان من اصدقاء الزعيمين الياسيين مصطفى كامل باشا ومحمد فريد بك منذ نشأتهما السياسية الاولى وظهورهما في ميدان السياسة الى آخر عمرهما حتى انهُ رثى محمد بك فريد حين علم بموته — طريد وطنيته — في اوربا بابيات من الشعر وجدها شقيقهُ عثمان بك في اوراقهِ وقد رثى قبلهُ الاستاذ الشيخ طاهراً ولعل هذين الرثائين آخر ما نظم وليسا كل ما نظم فقد كان رحمهُ الله ينظم الشعر بما يجده من الداعية في نفسهِ لارضاء نفسهِ ولكنهُ لم يكن يحب ان ينشر شيئاً من شعره في الجرائد ولا ان يظهره للناس إما لانهُ لم يكن يراه بالمنزلة اللائقة بشهرتهِ او لانهُ لم يكن يحب ان يسمى شاعراً واذ كان الشعر عنده امراً ثانوياً ذكرناه في ترجمتهِ استطراداً

﴿ آثاره العلمية ﴾ (١) ان اجل تآليفهِ واعظم آثاره العلمية هو (تاريخ اشهر مشاهير الاسلام) الذي طار بهِ صيتهُ في الاقطار وانما اتم منهُ اربعة اجزاء طبعت مراراً ونفدت نسخها

(٢) وكتاب (الدوافع الفكرية في المباحث العلمية) وهو كتاب اجتماعي جعلهُ اربعة اقسام (القسم الاول المدنية وداعيها واسباب تقدمها او تلاشيها) وفيهِ ٣ ابحاث (القسم الثاني التربية والاخلاق) وفيهِ ٤ ابحاث (القسم الثالث الادبيات) وفيها اربعة ابحاث (القسم الرابع مباحث علمية مختلفة وفيهِ ٥ ابحاث خامسها (التفريج) وقد اطال في ذمهِ ووصف ضرره وشره

(٣) كتاب (الدروس الحكمية للناشئة الاسلامية) وكفاهُ تقريظاً لهُ ان الاستاذ الامام محمد عبده قرر تدريسهُ في مدارس الجمعية الخيرية الاسلامية

(٤) رسالة تنبيه الافهام الى مطالب الحياة الاجتماعية في الاسلام

(٥) « كيفية انتشار الاديان » (٦) « الجامعة الاسلامية واوربا »

ولهُ خطب علمية القاها في بعض المحافل العلمية والمدارس العالية نشر بعضها في المنار

و بعضها في مجلة دار العلوم . وهذه يسهل جمعها وطبعها كمقالاته في المجلات . واما مقالاته في الجرائد فهي كثيرة وجمعها متعذر او متعسر

واما الكتب التي شرع فيها ولم يتمها فهي اثنان احدهما اكتاب في (تاريخ السياسة الاسلامية) رسم لهُ ثلاثة اقسام عصر الترقي الاسلامي وعصر الوقوف وعصر الانحطاط و بدأ القسم الاول بخلاصة السيرة النبوية والخلافة والوزارة والقضاء والولاية وامارة الجيش وكتابة الجيش والديوان والعطاء والكتابة العامة والسفارة الخ . وكتب منهُ بعض الابواب ثم وقف قلمهُ دون اتمامهُ واتمام اشهر مشاهير الاسلام وغيرهما . ولو اتمهُ على المنهج الذي وضعهُ لهُ لكان اجل من تاريخ اشهر مشاهير الاسلام بل من اهم الكتب التي يحتاج اليها المسلمون على الاطلاق

(ثانيهما) الرسالة التي سبقت الاشارة اليها في الخلاف بين الترك والعرب

وقد كتب منها ٦٧ صفحة كبيرة انتهى فيها الى البحث فيما سماهُ (ارجوفة الخلافة العربية) فبدأ به ولم يتمهُ وهذه الرسالة حجة بينة على شدة اخلاصهِ للدولة العثمانية وكراهتهِ الشديدة للرابطة الجنسية وتنفيرهِ عنها

﴿ اخلاقهُ وآدابهُ ﴾ قد اوتي الفقيد حظاً عظيماً من الآداب الاجتماعية والفضائل النفسية والفواضل العلمية . كان نزيه اللسان طاهر القلب منزهاً عن الحسد والحقد وفيّاً لاصدقائهِ برّاً باهلهِ وصولاً لرحمهِ متواضعاً في عزة نفس ذا مروءة صادقة ونفس سخية و يد مبسوطة حسن الضيافة كثير الصدقات والمساعدات للجمعيات الخيرية قليل التبجح والدعوى ما عاشرهُ احد من قومهِ ولا من غيرهم من الشعوب الاَّ واحبهُ واحترمهُ

وكان معتدلا في امور معيشتهِ يقتصر على اللائق بهِ من اللباس وجيد الطعام من غير اهتمام بالتطرز ولا جنوح الى التورن ولا افتنان في التنعم ولكنهُ كان شديد الولوع بدخان التبغ وكثير الاختلاف الى بعض المقاهي العامة على قلة عنايتهِ بالملاهي وانما كثر ذلك منهُ بعد ان ضعف جسمهُ وصار يتعب من الكتابة والمطالعة

وجملة القول اننا قد فقدنا بفقد هذا الصديق الوفي المهذب وان الامة العربية قد فقدت بفقد الابن البار العامل رجلا لا عزاء عنهُ الا انهُ قد انتهى الى حال من الضعف والامراض لا هناء لهُ في الحياة معهُ ولا رجاء في الانتفاع بشيء من مواهبهِ وتجاربهِ . فرحمهُ الله تعالى وعفا عنا وعنهُ وادخلنا واياه برحمتهِ في عباده الصالحين